اليزيدية

يبحث عن معتقدات اليزيدية وطبقاتهم الروحية وأمرائهم وشيوخهم وتقاليدهم وعاداتهم وكتبهم الدينية ومراقد ائمتهم وأساطينهم وقبائلهم وعشائرهم والاماكن المأهولة فيهم ، وحالة اليزيدي النفسية وخلوده الى حياة الفقر، والرحلات التى قام بها المؤلف بينهم ومحادثاته مع زعمائهم، وبحث مفصل عن الاوهام والاخطاء التى وقع فيها الكتاب الشرقيون والغربيون فيما كتبوه عنهم وارجاعها الى أصولها ، والفتاوى التي أصدرها علماء الاسلام بحقهم واخبارهم التاريخية فى الشيخان وسنجار .

مؤلفه

صديق الدملوجى

« حقوق الطبع محفوظة للمؤلف »

- طبع فى مطبعة الاتحاد -

الموصل - العراق

١٣٦٨ - ١٩٤٩

تقريظ

الاستاذ العلامة خليل عزمي بك متصرف لواء الموصل

جهد كبير متواصل حارب الكلال وحالف الصبر والثبات عشرين عاماً ، وتتبع دقيق كافح الملل واعتضد بالتروي والأناة ليالي وأياما ، فتم لصاحبها ما أراد من اكتشاف مطويات أمة لم يتوصل اليها غيره من شرقيين وغربيين حتى ظهر اليوم للعالم حاملا بيده سفره الجليل « تاريخ الملة اليزيدية » جذلا بثمرة اتعابه ، متواضعاً في عرض انتاجه ، كابحاً جماح غروره شأن عظام النفوس وكبار العقول .

تاريخ قيم تلوته بدقة وامعان فوجدته طافحاً بالمعلومات الثمينة التي كانت خافية على علماء التاريخ فضلا عن سواهم . ولهذا لم أجد ما يطمئن ضمير قلبي بتقريظه سوى قولي :

أصديق لا أدري بماذا أقرض * فلست بموف حق ما لا يعوض

١٩٤٩/٣/١٣

موصل : خليل عزمي

تقريظ

- الأستاذ الجليل ابراهيم بك الواعظ -

- رئيس محكمة استيناف الموصل -

لقد تناول الطائفة اليزيدية عدة علماء في بحوثهم الكثيرة، فمنهم من ألف كتباً، ومنهم من نشر مقالات مفصلة في هذا الموضوع ، إلا ان كل واحد منهم سواء كانوا من علماء الغرب أو الشرق ، لم يوف الموضوع حقه . وقد ساعدني الحظ بان اطلعت على ما أمكنني الاطلاع عليه من أسناد ، واخيراً فقد اطلعت - وأنا اشغل رئاسة المحاكم في لواء الموصل أحد ألوية العراق الشمالية - على هذا المؤلف الذي قام بجمعه وتأليفه الأستاذ الفاضل والمحقق الكامل صديق بك الدملوجي أكبر افراد الأسرة الدملوجية في الموصل، فانه بعمله هذا لم يترك شاردة ولا واردة فيما يتعلق بهذه الطائفة إلا وسجلها تسجيلا موافقاً للواقع .

وقد طالعت هذا الكتاب بامعان وتدقيق ، فوجدته قد تناول الخليقة في معتقد اليزيدية ، فقارن المؤلف بينها وبين العقيدة الاسلامية ، ودلل على تلك العقيدتين ، ثم استطرد الى اعتقادهم في الطوفان وظهور « يزيد » الذي يعتبره قسم منهم « الآله الأكبر » وقارنه مع ما ورد في التاريخ بحقه على وجه التفصيل . ثم فصل اعتقادهم في إقامة « طاؤوس ملك » وبما له من سلطان على الحق تعالى وتذلله له . وما يعتقدون بالمجرة « مجر الكبش » ثم أخذ يحلل أخذهم كلمة « طاؤوس » وسبب اتخاذه إلهاً وأنواعه والقبائل التي تدين به ، وكيف تسربت التماثيل الى متاحف اوروبا ، وبين المقدسات الأخرى لليزيدية عدا الطواويس بصورة مفصلة .

ثم استطرد الى ذكر الطبقات الروحية وحقوقها ، وأسرة الأمراء ونسبها وانتقال

الامارة اليها ، ولخص تاريخها وعاداتها وتقاليدها . وذكر « البسميرية » وهؤلاء طبقة دون الأمارة والمشايخ وتقسيمها و « البير » (١) وأقسامه ودرجاته ، والفقير وما يترتب عليه من أعمال وما يجب عليه من تقاليد ، ثم « القوال » و « المريد » و « الكوجك » وما عليه هؤلاء من الشعوذة والدجل ونبذة من تاريخ أعمالهم .

ثم تطرق الى ذكر عوائدهم بصورة تفصيلية ، فذكر « الكرافة » (٢) والتحريم والميراث والتعميد والختان وتعدد الزوجات والطلاق والاغتسال والأخوة الأخروية ودفن الأموات ، وما يترتب عليهم بعد دفن الميت ، ومراسم الأفراح ، وآمالهم في المستقبل . ثم أخذ يفصل تاريخ حياة الشيخ « عدي بن مسافر » وآله وأعقابه من الشيوخ .

وبين المديح المنسوب الى الشيخ عدي ، والقصائد الشعرية للشيخ حسن وحفيده الشيخ زين الدين يوسف ، وتناول كتب اليزيدية ، وتكلم عن كتاب « الجلوة » باسهاب ، وعلق عليه تعليقات مهمة للغاية . وأثبت صورة العريضة التي قدمها اليزيدية حول طلب إعفائهم عن التجنيد ، وذلك لما احتوت عليه من كثير من معتقداتهم وتقاليدهم الدينية ، وأورد ما أخذته الديانة اليزيدية من اعتقادات ومبادىء من البرهمية والزردشتية والثنوية والمانوية والمزدكية ، وتكلم عن ذلك بتفصيل ، ثم عاد وبحث عن اعتقاد الصوفية بالاسلام في « ابليس » وعرف عن وجه تسمية اليزيدية ، وذكر مراقد أئمتهم ومشايخهم في الشيخان وسنجار ، وأعيادهم ومواسمهم ، وبادر بالكلام عن مرقد الشيخ عدي بن مسافر واتخاذ هذا المرقد زاوية ، ورجع الى تحقيق أصلها وماذا كانت عليه قبل مجيء الشيخ عدي اليها ، وأثبت ذلك بالدلائل التاريخية ، ومنها مخطوطة لدى أحد القسس وبين ملاحظاته حولها .

وذكر العشائر اليزيدية وفرقهم وقبائلهم في الشيخان وسنجار وبقية المواقع ، وأشار الى طائفة من زعماء جبل سنجار وذوي الوجاهة منهم ، وما لهم من الأخبار المهمة ، وأبدى مطالعة فيما يحتاج اليه يزيدية سنجار من الاصلاح .

---

١) معناه بالفارسية الشيخ المسن وفي اصطلاحهم المرشد والمربي

٢) الكرافة ـ بمعنى الصداقة

ثم تطرق للبحث عن حالة اليزيدي النفسية واستكانته وقبوله الذل والخنوع ودرجة الجبن المستحكم فيه وما يتحمله من الشدائد ، وصورة معيشته ، وتجنبه اللذات وخلوده الى حياة الفقر ، ونفور المرأة اليزيدية من الرجل غير اليزيدى ، والأحكام التى تتعلق بالنكاح ، وكيفية تهريب النساء والفتيات ، وكيفية عقد النكاح ، وتعدد الزوجات ، والطلاق وبحث عن نفوسهم ولباسهم ، وأورد جملة من عاداتهم وتقاليدهم .

وبعد ان أوفى هذه المواضيع حقها بصورة منقطعة النظير، تكلم عن رحلاته التي قام بها بين اليزيدية ، ومحادثاته مع علمائهم وذوي الرأي والمكانة منهم فكشف عن حقائق على غاية من الأهمية مما لم يكن ليتوصل الى معرفتها أحد .

ولما كان يرى ان الكتاب الذين بحثوا عنهم من شرقيين وغربيين وقعوا في أغلاط وأوهام عظيمة فيما كتبوه تناول كتاب «تاريخ اليزيدية وأصل عقيدتهم» للمحامي عباس العزاوي نقداً وتمحيصاً ، وذكر الأخطاء التي وقع فيها عنهم ، وأرجعها الى أصولها الصحيحة، وهكذا فعل فيما كتبه المستر جورج .برسي بادجر، ومؤلف رسالة «اليزيدية او عبدة الشيطان » والشيخ علي الشرقي ، والسائحة الانكليزية « مس روزيتا » والشيخ عبدالسلام الماردينى ، والدكتور قسطنطين زريق واوليا جلبي وأبان عن أخطائهم .

وبحث عن الوصية الكبرى للامام الشيخ ابن تيمية واحتج بها على بطلان كل ما عزى الى هذا الدين ، وأرجعه الى الديانة الاسلامية ، وبحث عن الفتاوى التى أصدرها جماعة من علماء الاسلام بحق هذه الطائفة والأثر الذي تركته على الحالة السياسية والاجتماعية فى هذه البلاد .

وبعد ان فرغ من هذه الأبحاث أخذ يسرد حوادثهم التاريخية في الشيخان وسنجار وبحث بحثاً مستفيضاً عن حالة جبل سنجار وانتقال اليزيدية اليه ، وما لاقاه اليزيديون من صعوبات فى الدور العثماني .

***

لقد صرف المؤلف جهوداً جبارة في جمع الأخبار والحوادث والمعلومات حتى اصبح مؤلفه موسوعة كبرى تجد فيها كلما يتعلق بهذه الطائفة من اخبار وعادات وتقاليد وتاريخهم

وتاريخ البلاد التي يسكنونها بصورة تفصيلية ... وان هذه الجهود العظيمة استغرقت مدة تتجاوز العشرين سنة ، كان المؤلف خلالها يتنقل من بلدة الى اخرى ، ومن قرية الى قرية ، ويجتمع بهذا وذاك ، واذا ما طرق سمعه خبراً أو حادثاً ، شد الرحال غير مبال بجميع العقبات التي تقف أمامه ، وكم من مرة تعرض المؤلف للموت في سبيل تحقيق أمنيته هذه ، وقد توصل اليها غير مكترث ، ولا مبال بما لاقاه من أتعاب ، وما بذله من مال .

والحق أقول ان هذا السفر الجليل هو من الأسفار العظيمة الفائدة ، إذ ان المطلع على ما فيه يستوفي معلومات تاريخية مهمة تخص هذه الطائفة وغيرها من الملل ، كما وأنه يطلع على أحوال بلادهم ، وما جرت على تلك البلاد من ويلات .

فاني أقدم الى القراء الكرام هذا الكتاب الجليل ، بهذه الكلمة المتواضعة ، والله من وراء القصد .

ابراهيم الواعظ
رئيس محكمة استيناف الموصل

شكر وثناء

إني أشكر الاستاذين الجليلين خليل عزمي بك متصرف لواء الموصل وابراهيم بك الواعظ رئيس محكمة استيناف الموصل على تقريظهما كتابي هذا كما اني أقدم وافر الشكر الى اخواني الافاضل الذين شجعوني على اخراجه وأخص بالذكر الاستاذ العلامة الدكتور داؤد بك الجلبي فانه أمدني بآرائه السديدة في كثير من المسائل التي تناولت البحث عنها ولاحظ مسودات كتابي وأجرى التصليح عليها .

ولا يسعني من التنويه بفضل جماعة من « كرفائي » الشيوخ والبيرة والقوالين الذين لم يبخلوا علي باعطاء كل ما احتجته من اخبار ومعلومات عنهم وحديثهم معي دون تحفظ وتكتم .

المؤلف

اهداء الكتاب

الى صديقي الذي لا أبوح باسمه وهمسة فى أذنه

صاحبتك ثلاثين عاماً وهي مدة تكفي لأن تقرب بين اثنين مهما اختلفا فى المبدأ والعقيدة والروح وفى كل شيء . بالغت فى احترامك مجاراة لقومك ، اجتنبت عن ذكر اسمك عملا بوصيتك التي تقول فيها :« لا تذكروني اسمي ولا صفاتي لئلا تذنبوا.. » حضرت مراسم أعيادك ، اشتركت فى الحفلات التي تقام لأجلك عملا بما يحتمه علي واجب الصداقة. ولا أكتمك أني مغتبط جداً بك ، وفيك من الذكاء والفطنة والألمعية وخفة الروح ما حببك إلي وفتنني بك واذا كنت اكتفيت بجعلك صديقاً لي ولم أتخذك أستاذاً كما فعله أبو الحسين الصوفي الحلاج قبلي ، فلكل منا فيك وجهة نظر ، وخاتمة الصوفي الحلاج كما تعلم كانت أليمة جداً .

إن فطنتك ونباهتك هما اللتان جعلتاك سيداً لشعب عظيم دان بك سبعة عصور كاملة فصار بيدك آلة ماضية توجهها الى نحور أعدائك فكنت موفقاً . .

ولكن اسمح لي ان أهمس بأذنك أن شعبك هذا الذي دان بك طيلة هذه العصور ، وقدم لك القرابين والنذور ، وأحرق لك الند والبخور ، وتمرغ تحت أقدامك، وذرف الدمع على أعتابك ، قد مل معاشرتك وأخذ يشعر بأنه كان مخدوعاً بك ، ويريد الآن ان يخرج من طاعتك لما لاقاه من عنت واضطهاد في سبيلك ، وأقله ان أنكره أخوه الانسان ، وأنكر عليه حقه في الحياة .

أنت يا صديقي عصبي المزاج ، سريع الانفعال ، فيك عنجهية وعجب وغرور ، وهذا ما جعلك تضحي بمكانتك الرفيعة السامية في عالم الملكوت . فرجائي منك ان لا يأخذك الغضب عندما أفشي لك هذا الخبر ، وأنا لم آت به من عندي وتعلم أني واقف على خفايا القوم وما تكنه صدورهم .

إن رفض شعبك طاعتك يعد كارثة بالنسبة اليك ، ولكن ما العمل وقد أدرك هذا العصر الذي يعبرون عنه بعصر المدنية والنور . وقد استنار عقله ، واتسعت مداركه ، ويريد ان يندمج فى هذه الحياة ويأخذ منها نصيبه . يريد ان يلتحق بركب الحضارة

المهذبة ويغسل عنه وضر الجهل والضلال الذي دنسته به . ولذلك فنصيحتي لك ان تتحمل هذه الصدمة بثبات وشجاعة ولا تيأس ، وسوف لا تعدم أناساً ينخدعون بك .

لنتكلم يا صديقي بصراحة ـ وإن لم تكن تحب الصراحة ـ لقد كنت قاسياً جداً على هذا الشعب ، ولم يكن لقسوتك عليه حد . أنت تعرف تاريخ الأمم والشعوب والأديان أكثر مني ، وقد سايرتها في جميع أدوار حياتها منذ الخليقة . قل لي بربك هل رأيت متشرعاً فرض على قومه الجهل والغباوة وحرمهم من العلم والتعلم ، وأنزلهم منزلة الحيوانات السائمة كما فعلت ؟ ما ضرك لو جعلت فيهم من الذكاء والفطنة والعقل والتفكير شيئاً وهم قومك الخاص ، وأولادك الذين يحملون اسمك . عار عليك ان يكونوا هكذا أغبياء وهذا لا يتفق مع عبقريتك .

لقد حكمت عليهم بالعزلة والانفراد ، وأفهمتهم انهم من عنصر خاص غير هذا البشر ، وان البشر جميعهم أنجاس قذرون وحظرت عليهم مخالطتهم ومعاشرتهم ومؤاكلتهم وحرمتهم من المزايا الانسانية ، وأوجدت فيهم طبقات متباينة ، وجعلتهم خاضعين لطبقة ميزتها عليهم وأطلقت يد هذه الطبقة في مقدراتهم وعقولهم وأرواحهم وأجسادهم ، وأنذرتهم بالقحط والغلاء والفقر والجوع والمرض والموت اذا خالفوك . وقد أطاعوك طاعة عمياء ونزلوا عند كل ما أمرتهم به ، ولكنهم مع كل ذلك بقوا في قحط وغلاء وقتل وجرح ومرض وموت ، واصبحوا سخرية للعالم وأخذ الناس يأتون من أقاصي البلاد لمشاهدتهم كمن يأتي لمشاهدة متحف للآثار .

والآن وقد تغير كل شيء في الحياة ، ومحت آية النور آية الظلام ، ونالت العقول رشدها ، وانطلقت الألسن من عقالها ، فلا عتب لك عليهم اذا أرادوا فراقك .

وأنا أكتب هذه الكلمات وقلبي مملوء حزناً عليك ، فعزاء لك ، وصبر جميل على مصابك ، ورجائي منك ان تتقبل كتابي هذا كهدية متواضعة تتسلى بقراءته كلما ضاق صدرك وارتبك عليك أمرك . وتجدني قد أكثرت فيه الكلام عنك ، وأظن ان هذا ما يبهجك وينفس عنك كربتك ، اذ يعيد اليك ذكرى أدوارك الذهبية التي لعبتها فوق أشلاء أبنائك التعساء .

وبعد ان أكملت وظيفتي معك أرجو ان تعتبر صداقتي معك من الآن لاغية ولا لقاء بعد هذا .

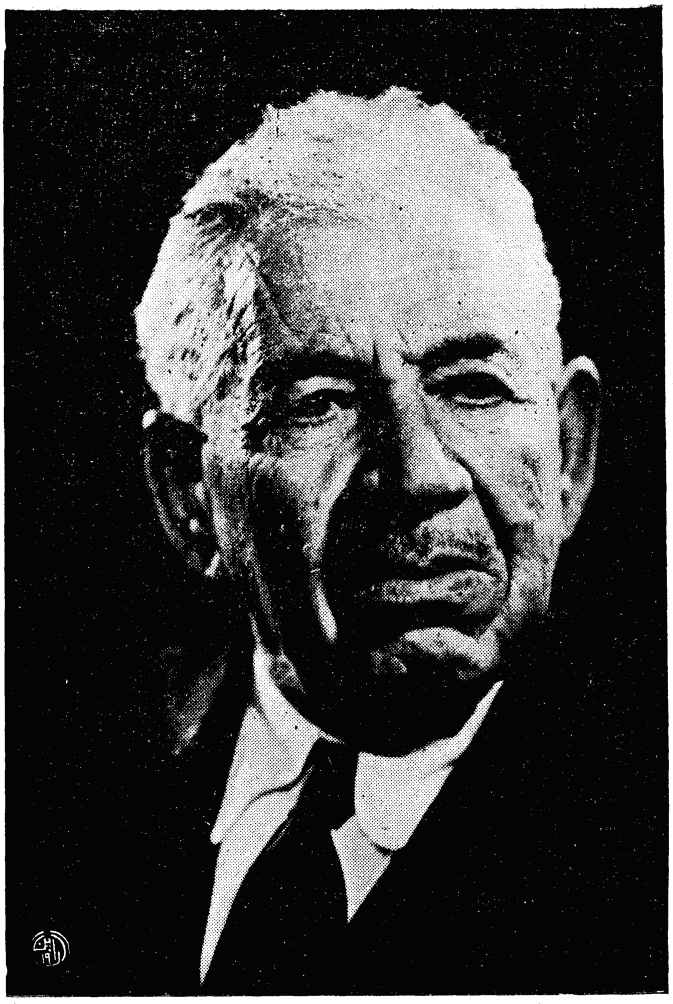

المؤلف

المقدمة

حللت سنجار وأنا شاب يافع لم أتجاوز من العمر عشرين ربيعاً ، وقد أحببتها لمناظرها الخلابة ، وحدائقها الفينانة ، ومياهها الزاخرة ، وما خلعته الطبيعة عليها من جمال وبهاء ورواء . وأكثر ما كان يلفت نظري فيها أناس قد ظفروا شعورهم وأسدلوها على أكتافهم ولبسوا على رؤوسهم قبعات مخروطة عالية ، واكتسوا ثيابا بيضا فضفاضة ، يروحون ويجيئون ، وقد صحب بعضهم معهم نساءهم الجميلات وهن لا يتميزن عن الرجال بشكلهن وملابسهن عدا انهن يلبسن عمائم بيضاء ويتقنعن بقناع أبيض رقيق ، ويحتذين الأحذية الحمراء او السوداء ، بينما الرجال أكثرهم حفاة .

هؤلاء هم اليزيدية الذين كنت أسمع عنهم إنهم يعبدون « الشيطان » ويؤذون المسلم ، وان ظفروا به قتلوه . وكان يخيل لي أنهم من غير جنس البشر ، لهم أنياب ومخالب يعدون بها . والآن فقد رأيتهم ، وأخذت أتكلم معهم ، وأشعر في نفسي ميلا اليهم . فمن هم هؤلاء الناس ، ولماذا سموا باليزيدية ، ومن أين جاؤوا ، وهل صحيح ما يقال عنهم انهم يعبدون « الشيطان » ويحملون العداء للمسلم ؟ كانت هذه الأسئلة تتزاحم في مخيلتي ولم أستطع جوابا عليها .

اجتمعت يوماً بسائح أجنبي في سنجار وهو في طريقه الى حلب ، وكان يحسن العربية ودار بيننا الحديث عن اليزيدية ، فأخذ يورد الأدلة على نصرانيتهم وانهم زاغوا عنها بعد ان انقطعوا في هذا الجبل ، ولم يكد رجال الدين يصلون اليهم ، ومتى يستتب الأمن في هذه البلاد ، وتعود الكنائس الى فعاليتها سيعودون الى نصرانيتهم ، والحق ان كلام هذا السائح لم يرق لي ، وكنت أريد ان أرد عليه ، إلا ان معلوماتي الناقصة عن اليزيديين وديانتهم وتاريخهم حالت دون ذلك ، واكتفيت بان قلت له : إذاً ما قولك في يزيدية « الشيخان » ورجال الدين النصراني على صلة بهم ، وليس ما يمنعهم من ان يقوموا بواجبهم نحوهم ويعيدونهم الى نصرانيتهم التي تخلوا عنها على ما تزعمه ؟ قال : هذا

أمر لم يأت أوانه وسيتم كل شيء في حينه .

كان حديث هذا السائح الأجنبي أول حافز لي الى دراسة هذا الدين ، وكيف ومتى ظهر ، وهل ان هؤلاء القوم كانوا قبلا على النصرانية وقد خرجوا عنها ؟ كان أمامي طريقتان ، الاولى : مراجعة الكتب والمدونات الموضوعة عن هذا الدين ، وأكثرها من وضع الكتاب الأجانب ، وقد وضعوها لغايات دينية وسياسية فلا يصح التعويل عليها وما كتبه الشرقيون معظمه مأخوذ من هؤلاء الأجانب ، وقد وافقوهم فيه دون بحث وتمحيص، والطريقة الثانية : هي الاكثار من مخالطة هؤلاء القوم والوقوف على عباداتهم وعاداتهم وتقاليدهم وأصول ديانتهم ، وهذه الطريقة أضمن لمعرفتهم معرفة صحيحة لاغش فيها ولا تضليل .

فتعلمت لغتهم ، وأكثرت مخالطتهم ، واتخذت لي « كرفاء » منهم ، فكنت أحضر مجالسهم ونواديهم وأشاركهم في أفراحهم وتعازيهم ، واطلع على طقوسهم الدينية وأصول عباداتهم ، وأحضر زياراتهم في مرقد « الشيخ عدي » « وطوافاتهم » التي يقيمونها في أمهات القرى ، وأباحث رجال الدين منهم وأحاورهم في شتى المسائل ، واخترت الاقامة في قرية « باعذرة » مقر الأمراء ثلاث سنين ، وأكثرت من التردد الى سنجار والشيخان ومرة واحدة الى الجزيرة وطور عابدين ونصيبين ، وهكذا وقفت على أسرارهم ومخفياتهم وأصبحت حجة في مسائلهم الدينية وكانوا يستفتونني بها .

***

إن دراستي التي قمت بها عن هؤلاء القوم الذين نسميهم الآن « باليزيدية » دلتني على انهم كانوا قديماً على « المانوية » يعتقدون بثنوية الآلهة والاباحية والحلول ، وقد ظلوا على هذه العقيدة ولم تؤثر فيهم دعوة الاسلام ولم ينقادوا لها الى ان أدركهم « الشيخ عدي بن مسافر الأموي » ـ الذي يتصل بالأب الرابع بمروان بن الحكم رابع الخلفاء الأمويين ـ فهداهم الى الاسلام وخلصهم من شرك الوثنية فظهر منهم : « أهل صلاح وتقوى وأهل قتال مجاهدون » وأصبحت زاويته العدوية قبلة الرواد من أصحاب السلوك والطرائق يأخذون فيها التعاليم الصوفية البريئة وينشرونها في مختلف الأقطار .

وغدا « لالش » من أعظم مراكز الارشاد والتهذيب الديني والعقلي في الشرق الأدنى وانتهى الى شيوخها تنشئة المريدين وتنظيم سلوكهم .

***

في هذا العصر كانت بلاد الجزيرة والفرات وسوريا وفلسطين ومصر يسودها القلق والاضطراب من جراء الحكم الذي يقوم به الأمراء والسلاطين من المماليك الذين بسطوا نفوذهم عليها بطريقة الغصب والتغلب من الحروب الصليبية ، وأصبحت مسرحا لتنافس سياسي عنيف . وكانت الموصل يحكمها اخيراً مملوك ارمني تربى في حجر المملوك « الاتابكيين » وورث ملكهم بالغدر والخيانة . وقد سلك هذا المملوك الارمني في ادارة ملكه سياسة البطش والارهاق مما جعل النفوس تهابه وتدين بالطاعة له . كل ذلك ولم يظهر في هذه الحقبة من الزمن من اصحاب البيوتات العربية العريقة من يتصدى لطرد هؤلاء الدخلاء فى العراق والجزيرة والشام ومصر ويقيم فيها دولة عربية ويعيد اليها سالف عزها ومجدها وسؤددها ، فالعلويون تلاشت عزائمهم بعد الاخفاق الذي منوا به فى تجاربهم العديدة التي قاموا بها لنيل الملك ، والدولة العباسية مزقتها الحوادث شر ممزق وأفقدتها حيويتها ، والأمويون نعموا بملكهم الذي أقاموه في بلاد الاندلس ولم يبق لهم ثمة علاقة بالشرق إلا بصيص أمل يشع فى بقية رجال منهم انزووا فى بقعة مجهولة من جبل « الهكارية » سلكوا طريقة الارشاد ، ولبسوا خرقة التصوف ، فكان الأمل معقوداً عليهم ، ولهم عصبية قوية من مريديهم تغنيهم عن عصبيتهم القومية التي لم يبقوا عليها .

إن اول من اختاجت أمنية الحكم في نفسه من رجال هذا البيت هو : « الشيخ شمس الدين أبو محمد الحسن » ابن « الشيخ أبي المفاخر عدي الثاني » ابن « الشيخ أبي البركات » ابن أخي « الشيخ شرف الدين عدي بن مسافر الأموي » عميد هذا البيت ، وواضع هذه الطريقة . والشيخ شمس الدين الحسن هو فيلسوف صوفي وعالم إلهي ، وقد ذهب به الحماس الى نيل الملك لدرجة ان جعله يضحي بدينه ، فوضع نفسه بمنزلة الآلهة ودعا قومه للايمان به ، فآمنوا به واتبعوه وعدوه إلهاً وعبدوه ، وتفانوا فى سبيل دعوته ،

وكادت خطته تنجح بالنسبة اليه وبالنسبة الى العصر الذي كان فيه . ونحن لا يهمنا أفشل في خطته السياسية هذه او لم يفشل . إلا ان الذي يهمنا ما كان لدعوته من الناحية الدينية من أثر على حالة هذا المحيط ، وكيف عاش هذا الدين طول هذه العصور ثابتاً وراسخاً امام الاعاصير التي عصفت به .

لقد وضع الشيخ الأموي مبادءه على غاية الاتقان بعد ان درس حالة قومه النفسية والعقلية والروحية ووقف على مواضع الضعف فيهم . فأدخل فى عقولهم انهم من عنصر خاص من غير هذا البشر ، وانهم يمتازون بنبل أرومتهم وشرف محتدهم ، وأفهمهم ان البشر أنجاس قذرون لا يجوز لهم مخالطتهم ومعاشرتهم ومؤاكلتهم . وفرض عليهم « الأمية » وأحاطهم بسياج كثيف من الجهل وحرمهم من النظر والتفكير فى شأن من شؤون الحياة . وهذان المبدآن لهما أهميتهما وخطورتهما في حياتهم الدينية والاجتماعية ، إذ بعد ان جعلهم ينظرون الى بني الانسان نظر كراهية واحتقار بصفتهم أشرف منهم وبأنهم ليسوا أهلا ليكونوا على قدم المساواة معهم ، فأمات فيهم كل شعور حي يدركون به فهم الاشياء المحيطة بهم ، فبقوا بعيدين عن كل تأثير خارجي ، وتم له ما أراده .

اما من ناحية العقيدة ، فقد دعاهم الى عبادة إله الشر « وهى عقيدة مجوسية » وأوجب عليهم مجاملته ومصانعته وأفهمهم ان لا خلاص لهم من شروره وآثامه إلا بتقديمهم النذور والقرابين اليه وأوجب عليهم التقرب الى بقية الآلهة الذين هم دونه وهم من أهل بيته ، ووضع عنهم التكاليف الدينية وأبدلها بما هو أخف منها ، وأباح لهم كل عمل يلقى هوى فى نفوسهم ، ووعدهم بأن « عديا بن مسافر » سيضعهم في طبق على رأسه ويدخلهم الجنة دون حساب وعقاب . وهذا الترهيب والترغيب كان له أثره فى نفوسهم ، وقد منعوا عن التفكير وحظر عليهم التحدث بأمر الدين .

كان لهذا الشيخ الأموي من بعد النظر وسعة التفكير ما لم يكن لغيره من أصحاب المذاهب الذين ظهروا في الشرق الأدنى وفي بلاد فارس فى الأعصر التي تقدمته . فلا « ماني » ولا « مزدك » ولا « خرم البابكي » ولا رؤوس المذهب « الاسماعيلي »

فكروا فيما فكر فيه ووضعوا مذاهبهم على الأسس والقواعد الراسخة التي وضع مذهبه عليه . وقد ضعف شأن تلك المذاهب وزالت من الوجود، حتى ان المذهب «الاسماعيلي» - الذي أصبح له دولة في بلاد فارس وأرهب الحكومات الاسلامية واغتال ملوكها وأمراءها وعاشت نحو (١٨١) عاماً ، قام فيها ثمانية ملوك كان لهم تنظيماتهم ووزراؤهم وجيوشهم- لم يقو على ضربة واحدة أنزلها بهم سلطان المغول فزالت دولته . اما اليزيدية فقد نزل بها ألف ضربة وضربة ولم تبد تراجعاً . وقد عولج اكثر من مليوني نسمة من تابعي هذا الدين بحد السيف منذ زمن ظهوره حتى عصرنا الحاضر ، فلم يظهروا توجعاً وما ذلك إلا لما لهذه التعاليم المحكمة من أثر في نفوسهم .

***

ظلت الحكومة العثمانية قابضة على زمام الحكم في هذه البلاد نحو اربعة عصور كاملة، وهي تنظر الى هذه الطائفة كعصابة ثورية دأبها العبث بالأمن والاخلال بالنظام ، وكانت تريد اخضاعها بالقوة ، فحملت عليها بجيوشها الزاخرة المرة تلو المرة ونكلت بها ، فلم تستطع تغيير ما في نفسها . ولما جاء دور الحكومة العراقية كان من المنتظر ان تعرف الداء وتتخذ له الدواء الناجع وتدخل عليهم الاصلاح من طريق غير الطريق الذي سلكته حكومة أبناء عثمان معهم ، ولكنها أخذت كذلك تستعمل القوة معهم عندما تجد ما يدعوها الى استعمالها . وسياسة القوة لم تكن مجدية وليس من شأنها ان توجد اصلاحا في النفوس ، بل تزيدها إمعاناً في الضلال والغي ، وكان من الواجب افهامهم خطأهم فيما يعتقدونه من التميز على باقي الأجناس وان الحالة الاجتماعية تدعوهم الى ان يندمجوا في الركب الانساني ويأخذوا بأسباب الحضارة والتمدن .

***

وقد أكثر رجال السياسة والادارة الانكليز من الاتصال بهم - بعد تبدل الحكم في العراق - وأكثروا من التردد الى جبل سنجار - أهم مراكزهم - وأوجدوا لهم منهم أصدقاء وقربوهم اليهم وأظهروا عطفهم عليهم ، إلا انهم لم يؤيدوا هذا العطف بادخال شيء من الاصلاح عليهم ، بل تركوهم على ما هم عليه من الجهل والفقر . والانكليز

يعرفونهم جيداً منذ عهد « لايارد » و « بادجر » وكان الأخير ينتظر تيقظ الكنائس من رقادها لتأخذ فى تنصيرهم . ولكن آمالهم خابت بعد ان علموا ان اليزيدي محال عليه ان يتهاون فى دينه ، وقد جاهر أحد شيوخهم بقوله : « أن كلا من المسلمين والنصارى يزين لنا دينه ، ونحن لا نرضى بديننا بديلا » وعندما علقت الحكمة العسكرية في سنجار سنة (١٩٣٥) سبعة من رؤسائهم على المشانق ، نادى أحدهم بحياة « يزيد » ولم يرهبه الموت .

ان دعوى رجوع اليزيدية الى المسيحية وكونها قد خرجت منها ، تدور في رأس كثير من الكتاب والباحثين الغربيين دون ان يرجعوا فيها الى تحقيق علمي او دراسة تاريخية ، وقد قاموا بهذه الدعوى بعد ان وجدوا ان ليس أحد من المسلمين يحنو عليهم ويدعي بهم ، فطمعوا فيهم وعقدوا آمالهم على أخذهم الى جانبهم .

***

كانت هذه الحقائق تمر من أمامى آخذة بعضها برقاب بعض ، وكنت أفكر في حياة هؤلاء القوم البائسين منذ زمن نشأتهم عندما كانوا يتوجهون الى عبادة الرحمن بعقيدة خالصة وايمان ثابت . ثم كيف حل بهم الضلال والزيغ واتخذوا لهم آلهة من شيوخهم وعبدوا « الشيطان » وابتعدوا عن الاسلام ، وكيف كان صاحب الموصل « بدر الدين لؤلؤ » يحاربهم بجيوشه الجرارة ويذبحهم ويقطع أوصالهم ويعلقها على أبواب مدينة الموصل ، وأمراء الاكراد يطاردونهم فى رؤوس الجبال ويوقعون المذابح فيهم ويخربون ديارهم وينهبون أموالهم ويسبون نساءهم وذراريهم . وعندما جاء دور حكومة أبناء « عثمان » كيف تنكروا لهم واخذوا يستصدرون الفتاوى الشرعية بعدهم كفاراً مرتدين ويطبقون حكم المرتد الكافر بحقهم حيث نجم من وراء ذلك مجازر بشرية دامت اكثر من ثلاثة عصور ، لم يكن يرى الانسان فيها غير الدم والنار ، فعمت الفوضى أنحاء البلاد وانعدم الأمن واصبحت الحياة جحيما لا يطاق .

***

كنت استعرض هذه الحوادث وأرثي لحالة هذا الشعب الذي لم يكن له ما يستحق

عليه هذه النقمة غير تمسكه بمبادىء غرسها فيه شيوخه وعلماؤه وهو لم يكن له مشيئة فيها ، فمن هو المسؤول عن بقائه على هذا الضلال حتى اصبح منبوذاً محتقراً مهانا ؟ اليست الحكومة التي تولت أمره أربعة قرون كاملة ولم تدعه يوما الى التفاهم وتقف على مرضه وتعالجه وتشفيه ؟ والتفاهم بلغة السيف والبارود بدلا من لغة الكلام يزيد الوحشة ويقوي أسباب التنافر والتناكر . إن التفاهم مع هذا الشعب ودعوته الى الاصلاح ليس بالأمر الصعب وليس فى الوجود انسان لا يقبل الاصلاح حتى الزنوج سكان أواسط افريقيا ، فالرجل الأبيض أدخل عليهم الاصلاح وهذبهم بعد ان كانوا يقتنصونه ويأكلون لحمه .

***

ومما نأسف له ان أحداً من الكتاب الذين بحثوا عن هذا الشعب ـ ونخص كتابنا الشرقيين ـ لم يتطرق الى الكلام عن تاريخ حياته ، والأدوار التي مرت عليه ، والمحن والآلام التي لاقاها فى سبيله ، وتقاعد الحكومة العثمانية التى تولت أمره عن ادخال الاصلاح عليه ، وعدته غير قابل للاصلاح ورجحت اقلاعه من على الأرض ؟ لم يتكلم عن هذا احد وكل ما قالوه وتكلموا عنه ينحصر في تعليل اسمه وكيفية اشتقاقه ، وعن عاداته وأخلاقه وأعياده ومراسم زياراته وشيوخه وعلمائه ، وهل انه يرجع فى الأصل الى الاسلامية او النصرانية ، ومن هو الشيخ « عدي » ؟ أمسلم عربي ، ام مجوسي تبرهي؟ الى غيرذلك من المسائل التى لا طائل تحتها .

***

كانت ولا تزال هذه الهواجس تساورني في أمر هذا الشعب الذي أهملناه ، ولم نعره اهتماما كأنما لم يكن يوما لنا مصاحباً فى العقيدة والدين ، وتربطه بنا مصالح مشتركة في هذا الوطن ، فتركناه فريسة للشقاء والجهل ، وأخذ أصحاب الأديان الأخرى يطمعون به ويعدونه لقمة دسمة ناعمة يريدون ازدرادها ، وفاتهم ان الظروف مهما باعدت بينه وبين المسلم لا تكفي لانكار قرابته منه من الناحية الدينية والجنسية ، فهو يشترك معه في كثير من العادات والتقاليد والعبادة ، والطابع الاسلامي لا يزال بارزاً فيه ، والرسوم التصوفية

ظاهرة عليه ، وهو وان كان من الجنس الآري ، تربطه أواصر القربى في كثير من القبائل العربية ، تلك الاواصر التي يعترف بها ويحترمها ، ولذلك اذا وجد له الطريق معبدة سرعان ما يعود الى الاسلام ، وعودته لا تكون شيئاً بدعا ، شأنه فى ذلك شأن من عق أبويه وعاد اليهما نادما مستغفراً .

***

لقد كان اهتمامي بهذا الشعب عظيما جداً وأنا أتألم له على ما لاقاه من اجحاف فى حياته المديدة لم ينعم فيها بحرية وهدوء . وقد وقفت على جميع مراحل حياته ، فكانت سلسلة مآس لم يلاقها أي شعب آخر غيره في تاريخه . وكان اهتمامي هذا به هو الذي دعاني الى تأليف كتابي هذا عنه لأدل على محله في التاريخ الاسلامي والسياسي وأبين الحيف الذي لحق به من جراء السياسة الغاشمة التي سارت الحكومة العثمانية عليها وإثارتها موجة مقت وكراهية ضده وعملها على ابادته فوقعت فى اخطاء يحاسبها التاريخ عليها .

***

إن مهمتي كانت شاقة وصعبة جداً ، فكنت اختار عناء سفر يستغرق أياما لأطلع على كتيب قديم يذكرونه لي عند أحد شيوخهم . وأعرض نفسي لأخطار جمة لأقف على مراسم دينية لهم يقيمونها سراً وبعيدة عن الأنظار ، وأدخل مع علمائهم في محاورات دينية لا تخلو من اثارة الرأي العام وحقده علي ، وأتجشم اتعابا شديدة لمشاهدة « مضيق » صعب جرى لهم فيه حروب عنيفة مع جيش الحكومة يذكرونها فى أناشيدهم وكم من مرة حضرت حروبهم ومقاتلاتهم بغية الوقوف على الأساليب التى يتبعونها في اعمال القتال ، وان نسيت لا أنسى ما لاقيته من اخطار ومهالك عند ذهابي الى « طور عابدين » مع « كريف » لي من فقراء يزيدية سنجار وأنا فى مقترب العقد الثاني من عمري لأدرس حالة سكانه اليزيدية « الجيلكيين » الاجتماعية والاخلاقية والمعيشية ، هذا عدا ما عانيته من آلام واسقام في الأيام الطويلة التي أمضيتها بين ظهرانيهم ، كل ذلك لأتمكن من القيام بمهمتي على الوجه الذي أرغب فيه ولتكون دراستي عن هذا الشعب كاملة غير ناقصة .

***